العرب
الإثنين 2019/07/29
السنة 42 العدد 11422

السبسي الذي أنصفته وفاته

الحبيب الأسود
كاتب تونسي

الجنازة المهيبة التي نظمها التونسيون لتوديع رئيسهم الراحل الباجي قائد السبسي إلى مثواه الأخير، كانت كأفضل ما يتمنى أي زعيم سياسي أن يودع به، وربما كانت ما تمناه أو حتى أكثر مما تمناه الرئيس الراحل نفسه، حيث كانت الوداع الأخير بمثابة تتويج حقيقي لمسيرة استثنائية لرجل خاض معترك العمل الرسمي منذ استقلال بلاده، وتولى مختلف الوظائف في هياكل الدولة من المدير إلى السفير فالوزير والرئيس. وشغل وزارات السيادة: الداخلية والدفاع والخارجية، والرئاسات الثلاث: رئاسة البرلمان، ورئاسة الحكومة، ورئاسة الدولة. وأثبت حضوره في العهود الثلاثة: عهد بورقيبة وعهد بن علي وعهد الثورة. وعرف في ثلاث مناسبات كيف يخرج بشرف من المأزق. فعل ذلك في أوائل سبعينات الماضي عندما تمرد على حزبه، الحزب الاشتراكي الدستوري داعيا إلى الإصلاح، ما تسبب في تجميد عضويته في 1971 ثم طرده من الحزب في 1974، ليكون أحد أبرز المدافعين عن الديمقراطية في تلك المرحلة. وفي العام 1992 انسحب من نظام بن علي بعد أن كان رئيسا للبرلمان، وعاد إلى مكتبه لممارسة مهنة المحاماة.

وكان خروجه الثالث الأكثر إثارة، وبشكل غير منتظر، حيث وبينما كان يتعرض لهجمة غير مسبوقة من قبل معارضيه، وفي مقدمتهم من كان وراء بروزهم سياسيا عبر حزب نداء تونس، وبينما كان يدعو البعض إلى عزله و إقالته أو عرضه على النائب العام للتثبت من حالته الصحية. وفي الوقت الذي كان الكثيرون يتحدثون عن احتجازه في قصر قرطاج من قبل أسرته وبعض المقربين، ويرجّحون خروجه من الباب الضيق، فاجأهم بوفاة مثلت ثأرا له ولتاريخه وتجربته، جعلته يستعيد بريقه في قلوب مواطنيه، ويرفع علامة النصر، ويحظى بإشادة وطنية وعربية ودولية، وبجنازة تاريخية شارك فيها التونسيون البسطاء والفقراء مدفوعين بعاطفة إنسانية غير ملوثة بحسابات الساسة والسياسة.

أدرك التونسيون يوم وفاة قائد السبسي أنهم خسروا أبا كان بمثابة خيمة لهم، وحتى وإن اختلفوا معه فإنهم يدركون أنه كان صادقا في وطنيته، فهو أحد القلائل المتبقين من جيل الرواد، جيل بناة الدولة الوطنية ومن دخلوا معترك الحكم وهم في بواكير الشباب ليكبروا مع تونس المستقلة ويعايشوا مختلف مراحلها، وعندما واجهت البلاد تحديات كبرى بعد الإطاحة بالنظام السابق، تحمّل مسؤولية رئاسة الحكومة في ظرف عصيب، وأمّن انتخابات المجلس التأسيسي ثم سلم كرسيه في قصر القصبة لرئيس حكومة جديد من حزب إخواني فائز، وهو يعلم أن هناك خللا سياسيا حصل وأن تونس تنادي أبناءها لإحداث التوازن المطلوب، فبادر بتأسيس حرمة نداء تونس، وخاض معركة بعض جوانبها معلن وبعضها الآخر غير معلن لإلغاء العزل السياسي، وقاد المعارضة ضد حكم الترويكا الذي يسير بالبلاد إلى وجهة التطرف والشمولية والانقلاب على المجتمع وعلى مكاسب دولة الاستقلال، وخاض انتخابات 2014 وفاز فيها برئاسة البلاد وفاز حزبه بالانتخابات التشريعية.

خلال السنوات الخمس الماضية، استعادت الدولة التونسية جانبا مهما من بريقها الإقليمي والدولي عبر دبلوماسية هادئة تحاشت الكثير من المصابات الشائكة، ونجحت بنسبة مهمة في التصدي للإرهاب رغم أن منابعه الفكرية لا تزال موجودة بل وتغلغلت حتى في مؤسسات الحكم، ورغم الأزمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، إلا أن الأغلبية الساحقة من الشعب أثبتت أنها لا تزال بالدولة، وعندما توفي قائد السبسي تأكد هذا الإثبات، فالرئيس الراحل برمزيته من حيث المنصب والمرجعية والتاريخ، كشف وهو في طريقه إلى مثواه الأخير، أن الخصوصية التونسية قادرة على الصمود، حتى وإن تعرضت لبعض الاختراقات، وأن ما يسميها البعض بالدولة العميقة عرفت كيف تحفظ المجتمع من أي تهديدات قد تصيب نسيجه المترابط، في حين أدرك أصحاب الأيديولوجيات المستوردة والأجندات العابرة للحدود، أنهم لن يستطيعوا تغيير الواقع الذي رسخته دولة الاستقلال المنحدرة بدورها من صلب تاريخ إصلاحي ثري، أعطى دائما لتونس زخما خاصا بها، وأفردها به عن محيطها.

الباجي قائد السبسي ترك وراءه حملا ثقيلا لمن سيخلفه في حكم البلاد، وأعطى درسا حتى وهو في نعشه إلى مثواه الأخير، لمن حاول أن يعطيهم ذلك الدرس وهو حي، وحظي بمكانة كبرى في مماته كما كان في حياته

جاءت وفاة قائد السبسي لتنصف الرجل الذي لو مات بعد تسليمه الحكم لمن ستفرزه الانتخابات القادمة، لكان رحيله عاديا كأي مواطن آخر، ولتطرح الكثير من الأسئلة على بعض من اعتقدوا أنهم قادرون على تغيير المجتمع وتوجيهه الى ثقافة أو أيديولوجيا الجماعة أو الحزب أو الحركة، ولتضع أمامهم الحقيقة التي يحاولون تجاهلها والتغاضي عنها، وهي أن كسب حب التونسيين يحتاج إلى أن يكون الباحث عنه تونسيا بكل تلك التلقائية التي كان عليها الرئيس الراحل، وهي تلقائية لا تخلو من حكمة الانتماء التي كان عليها من قبله بورقيبة، مع تفتح على العالم ليس بثقافة موسوعية فقط، وإنما بالتفاعل الإيجابي مع مكاسب الإنسانية ككل، ثم بالصدق في التعامل بوضوح مع الشعب غير قابل للتخفي وراء أجندات التمكين والسيطرة والتموقع في محاور هدفها إلغاء الدولة الوطنية والطعن في رموزها وتعريض سيادتها للبيع في أسواق الأيديولوجيات الشمولية ولو كان ذلك تحت شعارات ديمقراطية يعتمدها البعض سلّما للوصول إلى الحكم ثم سحبه حتى لا يستعمله أحد من بعدهم.

رحم الله قائد السبسي، رحل كما تمنى، وودعه شعبه بكثير من الحب، ووري الثرى في مشهد سرّ الصديق وغاظ أعداءه المتأدلجين، وترك وراءه حملا ثقيلا لمن سيليه في حكم البلاد، وأعطى درسا حتى وهو في نعشه إلى مثواه الأخير، لمن حاول أن يعطيهم ذلك الدرس وهو حي، وحظي بمكانة كبرى في مماته كما كان في حياته، رجلا مؤثرا، فاعلا، وصاحب مواقف، محبا للحياة ولبلاده، صادقا مرحا تلقائيا وحكيما، ووفيا لقناعاته، فكان بذلك الرجل الذي أنصفته لحظة مماته بأن أعادت الاعتبار لتجربة حياته.

انتهاء موسم الزيارات العربية للقدس المحتلة

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

تستند الزيارات التي تقوم بها شخصيات عربية للقدس على أنها مساندة خالصة للفلسطينيين القابعين تحت الاحتلال الإسرائيلي. ويرد هؤلاء دوما بأنهم لا يريدون سياسيين ومثقفين وإعلاميين عربا للتضامن الشكلي معهم وعلى مقربة من منازلهم، ومرحب فقط بمن يأتون غاضبين وفاتحين، في إشارة إلى تفضيل الأدوات الخشنة للتضامن على الناعمة.

فجرت زيارة دعائية قام بها مؤخرا وفد من شخصيات عربية تنتمي لدول مختلفة، غير معروف أن لها علاقات سياسية رسمية مع إسرائيل، موجة من القلق في بعض الأوساط الفلسطينية، خشية أن تصبح مطية لأهداف خفية.

وجددت نقاشا قديما حول مواءمة هذه النوعية من الزيارات للتطورات الراهنة الصعبة، ومدى ما تحمله من مردودات سياسية لأصحاب القضية أنفسم الذين يرفض غالبيتهم التأييد المصحوب بـ"شو" أو ضجة تجني من ورائها إسرائيل مكاسب سياسية كبيرة من غير أن تزحزحها عن مخططاتها.

مع كل جولة عربية في الأراضي الواقعة تحت الاحتلال يتكرر مشهد الانقسام بين الفلسطينيين. فالبعض يرى أنها مهمة في الشد من عزيمتهم وفضح إسرائيل، بينما يعتبرها آخرون تخليا عن مسمار التطبيع الذي يملكه العرب في مواجهتها، ويثبت أنها منبوذة في المنطقة، وبالتالي كيف سيتم هضمها أو استيعابها في مشروعات إقليمية وهي مرفوضة من الجهات المحيطة بها؟

يريد الفلسطينيون تكريس هذه الفكرة لمحاربة ما يمكن وصفه بـ"الليونة" العربية الزائدة وغير المبررة، التي أدت إلى تضخم إسرائيل، وأضفت عليها معالم جديدة للقوة المعنوية في المنطقة، حولتها إلى كيان جاذب بعد أن كانت ملفوظة لعقود طويلة.

وشجعت هذه الحالة دوائر أميركية على صياغة منظومة متناثرة من الأفكار الخيالية، قيل إنها تنطوي على صفقة سياسية سوف تخرج الشرق الأوسط من أسر القضية الفلسطينية، وتقدم حلولا عملية للمعوقات التي وقفت حائلا في طريق تسويتها، لكنها فارغة من المقومات الدولية التي حكمت من حاولوا الاقتراب منها.

بصرف النظر عن حجة ومنطق كل فريق، فإن اختيار زمن الزيارة أصلا كان خاطئا، وجرى توظيفه بعناية من قبل بعض وسائل الإعلام في إسرائيل لتأكيد أن ثمة عربا يخطبون ودها ويتقربون لها ويتجاهلون ما تمارسه قواتها من جرائم، وفي تحد سافر تمادت في الانتهاكات التي تقوم بها ضد سكان القدس أخيرا، وتستعد للقيام بعملية تهجير كبيرة وهدم أعداد جديدة من البيوت الفلسطينية لمحو الآثار التاريخية نهائيا، وتجاوزها لتعبيد الطريق أمام الحل الأميركي المعروف بـ"صفقة القرن".

لذلك كان ممنوعا على الزائرين العرب ترجلهم بحرية كاملة في باحة مسجد قبة الصخرة، وقام فلسطينيون بالتعبير عن امتعاضهم منهم بالبصق والحجارة، لأن الجولة تعكس تعاطفا مع الإسرائيليين وتجاهلا لمعاناة المواطنين مع الاحتلال، وليس تضامنا حقيقيا معهم. فهناك طرق عديدة للدعم من الممكن تبنيها وقد تكون لها نتائج كبيرة، لأن فكرة الجولات السياحية المجانية تجعل المحتل يمعن في غيه، وتسقط ورقة التوت الأخيرة من أيدي الفلسطينيين الذين يصممون حتى الآن على التمسك بعدم هدم جدار التطبيع.

يفسر احتفاء المسؤولين في إسرائيل بكل لقاء يجري مع أي شخصية عربية، حتى ولو كان لدواع دبلوماسية دولية، رغبتهم في استثمار هذه الورقة ومحاولة تفريغها من مضامينها السياسية. وهو ما فرض على الدول العربية التي يحمل جنسيتها هؤلاء التنصل من الزيارة وأصحابها ومراميها.

يعكس الرفض والاحتفاء والتنصل حال العلاقات العربية الإسرائيلية، ويشير إلى أن الخسائر التي تكبدتها القضية الفلسطينية لم تؤثر على مرتكزاتها السياسية، والرهان مستمر على أن المقاطعة سلاح سوف يحرز أهدافا تفوق ما يمكن تسجيله مؤقتا بالجولات السياحية.

درج ساسة إسرائيل على تحميل اللقاءات التي يتم ترتيبها أو تحدث صدفة في أماكن مختلفة معاني كبيرة، بقصد التأكيد أنها رقم أساسي في المنطقة، ويتم قبول التعامل معها كما هي ودون اعتداد بالتصرفات الإجرامية التي تقدم عليها، ولا حاجة لشهادات حية عنها حول الداخل الفلسطيني من الزائرين العرب. وإذا استشعرت أن ذلك يمثل خطرا عليها سترفضه صراحة، ما يعزز من فكرة عدم استساغتها أصلا التطبيع بالزيارات، وانتقاء من يقومون بجولاتهم في القدس أو غيرها بعناية وفي توقيتات معينة. يعيدنا مشهد دعم ومؤازرة الفلسطينيين بالذهاب إليهم في الأراضي المحتلة إلى مشاهد مصرية بائسة، جرت معظم تفاصيلها في عقد التسعينات من القرن الماضي، عندما تصاعدت موجة البحث عن السلام معها، عقب مؤتمر مدريد الذي عقد في أكتوبر 1991، وتصورت جماعة من السياسيين والمثقفين والصحافيين أن هناك فرصة لاختراق إسرائيل وتليين مواقفها، عبر استمالة ما يسمى بتيار اليسار المؤيد للتسوية السياسية على أساس حل الدولتين.

منح هذا التصور فرصة لتبرير اجتماعات مصريين مع إسرائيليين في أماكن متفرقة، وأمعن أصحابه في تسويقه باختراع تشجيع زيارة الأراضي المحتلة لكسر الحواجز النفسية وتأييد الفلسطينيين، لكن فشلت الحيل المتباينة ولم تفض إلى الحصول على ثمار سياسية واضحة، وبات أصحاب هذا التيار غير مرحب بهم وسقطوا في فخاخ إسرائيل المتتالية.

وثمة فئة كبيرة من الفلسطينيين ضجت من المتاجرة العربية بقضيتهم فتوقف هؤلاء عن منهجهم وتحركاتهم، وشعروا أن إسرائيل لن تقبل بتدفق أعداد كبيرة بذريعة مساندتهم وفضح أساليب الاحتلال القذرة، وقد توافق على زيارات رمزية عندما تجد أنها تصب في صالح تبييض وجهها فقط.

وفرت ضجة محبي السلام أو مؤيدي التطبيع مع إسرائيل فرصة لاختبار إرادة وعزيمة المصريين، حيث جاءت ردود الفعل رافضة لكل أنواعه، وتبنت النقابات المهنية موقفا رائدا وصارما لم يسقط حتى الآن، ولا تزال تحافظ على التمسك به، ولا تبالي بحجم السيولة والمرونة الرسمية التي حدثت في التعامل مع إسرائيل. ولم تنل محاولات التطبيع السياحي-السياسي من الثوابت الوطنية، وأكدت ضرورة الفصل بين المسارات الشعبية والرسمية.

مضت سنوات طويلة على أنصار هذا التيار وسقطت موانع على جانبي الطريق، ولم يتغير شيء في مسيرة القضية الفلسطينية. والتغير الوحيد يتعلق باتساع نطاق التدهور، ونجاح إسرائيل في القبض على زمام الأمور في ملفات عدة. كما أن فريق التطبيع الأول لا يتذكر أفراده أحد بخير الآن. فقد تم استخدامهم كأدوات لجرح المقاطعة ومحاولة تصفيتها، لأنها كانت مؤلمة في وقتها. بعد تدفق الكثير من المياه في نهر العلاقات مع إسرائيل، لم تعد الأخيرة بحاجة للعزف على وتر مخاطر المقاطعة أو تظهر حاجتها للتطبيع. حيث تزايدت الهرولة العربية، سرا وعلانية، وأصبحت حكومتها تقاوم بعنف زيارة الفلسطينيين في الأراضي المحتلة لأسباب سياسية ودينية وإنسانية، لأنها تمنحهم مشروعية تسعى بكل الأساليب نحو نزعها عنهم، وترى أن الأجواء الإقليمية مواتية أمامها لتصفية القضية الأم، ولا تريد تذكير العالم بأن هناك شعبا يقبع تحت الاحتلال، وبالتالي من المنطقي أن ينتهي مفعول الزيارات العربية للقدس وغيرها من الأراضي الفلسطينية المحتلة.

إيران ليست مشكلة سعودية

عمر علي البدوي
صحافي سعودي

ثمة طرح إعلامي يريد حرف الحقائق وتشويه الواقع بحصر المشكلة المتصاعدة اليوم في الخليج، في محض خلاف بين السعودية وإيران، وأن الرياض تحشد القوى الدولية والإقليمية لمنافسة ومزاحمة خصمها اللدود في الطرف المقابل من مياه الخليج العربي.

عامدا أو متعاميا يشحذ الإعلام المتماسّ مع قطر وتركيا وإيران والإخوان طاقته لتحريف الواقع، والتخفيف من وطأة ما تقاسيه طهران اليوم من نتائج سلوكها وتمددها غير المحسوب في بعض بلدان المنطقة التي فتكت بها ميليشيات إيران واخترقت وداعتها وسلم أهلها.

لكن الحقيقة أن إيران بسلوكها وإستراتيجيتها ونتائج خياراتها ليست مشكلة سعودية ولا إماراتية ولا خليجية فقط، بل هي مشكلة إقليمية ودولية، فالجهد الذي تبذله طهران للفتّ في استقرار المنطقة، وعلاقاتها مع كل بؤر التشدد والإرهاب في العالم، أمر يهدد سلامه واستقراره ويسير به تجاه حافة الهاوية والفوضى التي تستمرئها إيران. بازدواجية مزعجة، تصوغ الدعاية المعادية للسعودية ورفاق طريقها، قصة المشهد الراهن على نحو يجعل من الرياض معتدية على إيران، طامعة في الحرب، غير آبهين بالجراح المفتوحة التي نالت الشعوب العربية جراء سلوك إيران وميليشياتها التي تفتك باستقرار سوريا وتفتّ في نسيج العراق وتغذّي تشرذم اليمنيين وتسلب استقلال لبنان وتؤذي جاراتها العربية في كل مناسبة ومكان.

وهي تفعل ذلك وتجاهر على لسان كبار قيادات الحرس الثوري الإيراني، بنفوذهم على قائمة من العواصم العربية، ونواياهم غير المكتومة لزيادة هذه القائمة بدسّ المزيد من فرص الفوضى والعبث باستقرار دول المنطقة المختلة والآيلة للاختراق.

لا أحد يودّ لطبول الحرب التي تدوّي الآن في المنطقة أن تنتهي إلى حالة اشتباك مدمرة لن يسلم منها طرف، ولا أحد في المنطقة ينافس الرياض في نيتها ورغبتها للسلام والاستقرار، وهي التي مدت يدها للسلام في الكثير من المناسبات والفرص الضيقة، ووجدت من طهران وجها ضاحكا ويدا طاعنة، حتى استقرّ لديها أن المواجهة الصريحة هي الحل لوقف نزيف المنطقة وانهيارها أمام جحافل التغوّل الإيراني. وسيحدث هذا بالتنسيق رفيع المستوى مع المجتمع الدولي الذي أعطى طهران فرصة للسلام، ثم قوّضته الإدارة الأميركية الجديدة وقد تبيّن لها أن الصفقة الأوبامية لم تكن إلا بردا وسلاما على سلوك إيران وضوءا أخضر للدأب في نهجها المؤذي للمنطقة والعالم.

الكثير من الملفات العالقة في المنطقة متوقف على تغيير سلوك إيران، مما يجعل مواجهتها ضرورة وليس ترفا، للحد من تماديها في شق الصفوف العربية حتى داخل الوطن الواحد، بما يؤثث لشقوق ينفذ منها المستثمرون في أوجاع العرب، ويبسطون مشاريعهم الانتهازية، على نحو ما يحدث من تعطيل الحياة السياسية في لبنان والعراق، وشلّ أي تقدم في الشأن الفلسطيني بزيادة الفرقة وتفتيت اللحمة ومشاريع الوفاق.

ورغم هذا، بقيت ثلة من الأصوات التي خلعت عنها ثياب الموضوعية والإنصاف، واستجابت لمتبنياتها الأيديولوجية من بقايا القومية الرثّة وخطاب المقاومة المستهلك ضد إسرائيل، بما يتوافق والسردية التي تتبناها إيران وحوضها المزيف للمقاومة، ودعواهم بأن الطريق إلى القدس يبدأ من دمشق أو صنعاء أو بغداد وهلمّ من حواضر العرب وعواصمهم المنتهبة من المشاريع الإقليمية وطابورهم الخامس في أحشاء المنطقة.

العرب
أول صحيفة عربية صدرت في لندن
1977 أسسها
أحمد الصالحين الهوني

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير المسؤول
د. هيثم الزبيدي

رئيس التحرير والمدير العام
محمد أحمد الهوني

مدراء التحرير
مختار الدبابي
كرم نعمة
حذام خريف

مدير النشر
علي قاسم

المدير الفني
سعيدة اليعقوبي

تصدر عن
Al-Arab Publishing House
المكتب الرئيسي (لندن)
The Quadrant
177 – 179 Hammersmith Road
London, W6 8BS, UK
Tel: (+44) 20 7602 3999
Fax: (+44) 20 7602 8778

للإعلان
Advertising Department
Tel: +44 20 8742 9262
ads@alarab.co.uk

www.alarab.co.uk
editor@alarab.co.uk